

الأسس السوسولوجية للتحصيل الدراسي

د.سحوان عطاء الله
أستاذ بقسم العلوم الاجتماعية
(كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية)
جامعة زيان عاشور بالجلفة - الجزائر-

مقدمة:

التحصيل الدراسي للتلاميذ له علاقة كبيرة بالثقافة والمجتمع، والأوضاع الحضارية للدولة والأمة، والمنظومة التعليمية السائدة في المجتمع، إضافة إلى تأثير الأسرة والمدرسة ومنظومة القيم الثقافية الإيجابية والسلبية السائد في المجتمع، وعلى هذا الأساس فإن علماء الاجتماع كانت لهم تفسيرات سوسولوجية متباينة لظاهرة التحصيل الدراسي وهذا لاختلاف المقاربات السوسولوجية التي ينطلق منها علماء الاجتماع.

المدرسة الاشتراكية وتأثيرها في مخرجات النسق التعليمي حسب دانيال لندنبارغ:

لقد كافحت الطبقات الشعبية والطبقات العمالية (البروليتارية) منذ آلاف السنين لافتكاك حقها في التعلم والتمدرس الذي كان في يوم من الأيام حكرا على الطبقات البرجوازية الغنية فقط.

"إن أكثر ما يهمننا هو التعليم الابتدائي، فالتعليم الابتدائي قد شغل كثيرا الأحزاب البروليتارية، كما لعب دورا هاما لدى العشائر الاشتراكية في القرون الوسطى، إن احتكار الطبقات الغنية للتعليم في جميع العصور مسعى الجزء المفكر للبروليتارية، مما أدى حتما إلى

النظام بمضاعفة وتحسين أداء المدارس وتحسين مستوى المدرسين وزيادة مستحقاتهم، بل وتعداه الأمر إلى أشياء أخرى"⁽¹⁾

وهكذا نجد العشائر الاشتراكية قد قامت في القرون الوسطى بكفاح كبير من أجل الظفر بحقها في العلم والمعرفة مما أدى بالطبقات البرجوازية أن تستجيب لذلك رغم أنها ففتح باب التعلم لأبناء الطبقة البروليتارية.

"أما البروليتارية المنتصرة فلم تتمكن بسهولة من القضاء على الخلافات الطبقيّة، وكانت نتائج تطوّر بضعة آلاف من السنين، ولا يمكن أن تضمحل ببساطة، غير أن المدرسة يمكن أن تساعد على تحضير النفوس وتساوي بين الطبقات شيئاً فشيئاً، من خلال تعليم جميع الأطفال، الذين يكونون متساوين في الغذاء والملبس، بإعطائهم جميعاً المؤهلات نفسها لتنمية ذواتهم العقلية والبدنية بشكل جذري"⁽²⁾

لقد كافحت البروليتاريا عبر التاريخ من أجل الظفر بهدفها الأساسي وهو القضاء على الخلافات الطبقيّة، ومن بين الوسائل المستعملة في هذا الميدان هو الجهاز المدرسي الذي يمكنه أن يسوي بين الطبقات بطريقة متدرجة، هذا عكس ما تهدف إليه المدرسة الرأسمالية التي تهيمن عليها ثقافة الطبقة البرجوازية.

"تخدم مدرسة المجتمع الرأسمالي مصالح الطبقات المالكة قبل كل شيء، بهدف تكوين طبقة معزولة من ذوي الامتياز والقادرين على توجيه المجتمع البرجوازي وتأمين سيرورة آلياته واحترام صلاحياته ومن جهة أخرى من أجل إبقاء الغالبية الساحقة من الشعوب في حالة كتلة خاضعة فكرياً وكوسيلة عمياء للرأسمالية"⁽³⁾

ومنه فإن الجهاز المدرسي يعمل بطريقة خفية وغير مباشرة لتهيئة الطفل البرجوازي ليلتحق بالطبقة البرجوازية ويستلزمه ذلك حتماً أن يكون متفوقاً في دراسته مواصلاً لها على المدى الطويل، بينما يهيئ الطفل البروليتاري ليلتحق بطبقته العاملة وكثيراً ما يقتصر أبناء الطبقة

⁽¹⁾Ibid, P: 37.

⁽²⁾Ibid, P: 37.

⁽³⁾Ibid, P: 59.

البروليتارية على الضرع قصيرة المدى من أجل الالتحاق بالعمل في المؤسسات التي يملكها البرجوازيون وهذا ما يجعل دراسته عادية وآفاقه محدودة.

"الشكل الرأسمالي للاقتصاد يتطلب تربية للطبقة الاجتماعية الأجيرة للمستضعفين بواسطة المدرسة الابتدائية ومدارس التحسين والجيش فمن جهة ينبغي على الشاب البروليتاري أن يكون قادرا على العمل وفقا للتقنيات الحديثة وأن يكتسب المعرفة الابتدائية اللازمة لتأهله، غير أنه ومن جهة أخرى، ينبغي أن نواجه ما يستعمل لذاته من هذه المعرفة، وما يمنعه من التفكير وما يثبته عن مصالحة الطبقة"⁽⁴⁾.

وعليه فإن الطبقة البرجوازية المهيمنة تعمل بطريقة غير مباشرة من خلال الجهاز المدرسي على تأهيل أبناء الطبقة البروليتارية ليكونوا في المستقبل عمالا في المؤسسات الإنتاجية التي يملكها البرجوازيون وعلى هذا الأساس يتجه أبناء الطبقة البروليتارية إلى اختصار الطريق عن طريق التعليم قصير المدى، بينما يتجه أبناء الطبقة البرجوازية إلى التفوق الدراسي والجد والاجتهاد والتعب والنصب وتسخير الأموال من أجل الظفر بالمراتب الأولى في الدراسة لكي يواصلوا الدراسة في التعليم طويل المدى.

بيرنستين: الرموز اللغوية؛

يرى بيرنستين أن التحصيل الدراسي له علاقة بالتفاوت واللامساواة في المجال الاجتماعي، ويركز في نظريته على المهارات اللغوية، حيث يرى أن المهارات والرموز اللغوية التي يكتسبها الطفل لها علاقة بالوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه وهذه الثروة اللغوية أو الرأسمال اللساني يؤثر بعد ذلك في نتائج التحصيل الدراسي، إن حديث أطفال الطبقة العاملة له علاقة بسياقهم الثقافي الذي يتميز بالترابط العائلي والإحساس بالجيرة الحميمة حيث يتواضع الناس على كثير من القيم والمعايير، ويلتزمون بها دون أن يتكلموا عنها، حيث إن اللغة التي تستخدم بين أبناء الطبقات الفقيرة لا تخرج من سياق التواصل دون أن تتطرق إلى الأفكار والعمليات والعلاقات المجردة، ولذلك تجد اللغة المستعملة عند أبناء الطبقات العاملة تعتمد على الرموز المقيدة، وهذا الذي يؤثر بعد ذلك على نتائجهم المدرسية المحدودة.

⁽⁴⁾Daniel Lindenberg, *l'internationale communiste et l'école de classe*, François Maspero, paris, 1972, P: 163.

بينما نجد أن أبناء الطبقة الوسطى يتميزون باكتساب الثروة اللغوية المفصلة من خلال القيم الاجتماعية السائدة في الأسرة حيث إن الطفل يعيش في أسرة تعتمد على التفصيل والشرح لمختلف السلوكيات والقضايا الحادثة داخل البيت، على إثر ذلك يكتسب أبناء هذه الطبقة الرموز المفصلة التي تجعلهم أقدر على التعامل مع متطلبات التعليم الأكاديمي الرسمي مقارنة مع زملائهم الذين ينحدرون من الطبقات الفقيرة حيث إن أبناءها قد تلقوا الرموز المقيدة وهذا ما يسهل على أبناء الطبقة الوسطى الاندماج في الوسط المدرسي.⁽⁵⁾

ومنه فإن الثروة اللغوية التي يكتسبها الطفل في البيت لها دور كبير في مستوى التحصيل الدراسي الذي يصل إليه، لكن هذه الثروة اللسانية التي يكتسبها الطفل من خلال الوسط العائلي لها علاقة بالثقافة والقيم والمعايير العائلية، وهكذا نستنتج أن الثقافة الأسرية التي تكسب الأبناء الرموز المفصلة من خلال التواصل الاجتماعي داخل الأسرة تؤهلهم بعد ذلك للتفوق الدراسي.

إيليتش: المنهج الدراسي الخبيء؛

يشكك العالم إيليتش في ضرورة التعليم الإلزامي في المجتمعات الحديثة ويؤكد إيليتش على أن هناك علاقة ارتباطية بين المدرسة والمستويات الاقتصادية المتباينة لدى الشرائح الاجتماعية والتراتب الاجتماعي.

كما يعتقد إيفان إيليتش أن المدارس اليوم تقوم بأربعة واجبات فقط:

الرعاية التأديبية، توزيع الناس وفق تراتب مهني معين، تعليم القيم المهيمنة، واكتساب المهارات والمعارف المقبولة اجتماعيا، وأكثر شيء يتعلمه الأطفال داخل المدارس هو الاستهلاك السلبي بمعنى الاندماج الطوعي في التراتب الاجتماعي والطبقي المهيمن في المجتمع ويتم هذا التلقين بطرق غير مباشرة أو ما يسميه إيفان إيليتش المنهج الدراسي الخبيء وعلى هذا الأساس فإن إيفان إيليتش يدعو إلى "لا مدرسة المجتمع" لأن التعليم الإلزامي اكتشاف

⁽⁵⁾ أنتوني غيندنز، تر: فايز الصباغ، علم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص: 558 - 559.

حديث وليس هنالك ما يدعو لأن نجعله أمراً ضرورياً لا مناص منه، لأن المدارس لا تشجع على إقامة المساواة، ولا تحفز على الإبداع، فمن الممكن الاستغناء عن المدارس.⁽⁶⁾

إن النتيجة التي وصل إليها إيفان إيليتش تشير إلى أن الجهاز المدرسي يمارس وظيفتين: وظيفة معلنة وهي تلقين المعرفة والعلم ووظيفة كامنة وهي تلقين الثقافة والمعايير والقيم، وعليه فإن إيفان إيليتش يقترح بدائل جديدة للمدارس.

"ولا يقصد إيليتش بذلك إزالة النظم التعليمية بأشكالها كافة، بل إن ما يرمي إليه هو ضرورة تزويد المتعلمين بما يحتاجون إليه من موارد طيلة حياتهم لا خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة في حياتهم، وعلى نحو تقتصر فيه المعرفة على فئة من الاختصاصيين، وينبغي في هذه الحالة أن يكون للمتعلمين مجال لاختيار ما يريدون دراسته، كما يتوجب تطوير عدة أطر تربوية تتوافر فيها المعرفة في المكتبات والمختبرات وبنوك المعلومات مع إقامة شبكات للاتصال عن المهارات التي يتمتع بها مختلف الأفراد، كما يستلزم ذلك توزيع كويونات مجانية يتمكن بواسطتها الطلاب من الانتفاع من الخدمات التعليمية حيثما يشاؤون"⁽⁷⁾

إن هذه المقترحات التي طرحها إيفان إيليتش أصبحت ممكنة بعد التطور المذهل الحادث من خلال الخوارق التكنولوجية التي ظهرت في ميدان تقانة المعلومات والاتصالات الحديثة وذلك عن طريق التدفق المعلوماتي المذهل بسبب الخط السريع للإنترنت، وهذا يخفف بعد ذلك في اللامساواة في التربية والتعليم والتي تنعكس بعد ذلك على نتائج التحصيل الدراسي بين التفوق والتحصيل العادي والتسرب المدرسي.

وليس: تحليل إعادة إنتاج الثقافة؛

البيئة المدرسية والبيئة الأسرية لهما دور كبير في التنشئة الاجتماعية للأبناء والتي تكسبهم الثقافة والمعايير والقيم والتي تؤثر بعد ذلك في نتائجهم التحصيلية في المدرسة وقد كان لبيار بورديو وباسرون دراسات سوسيولوجية معمقة في هذا الموضوع.

⁽⁶⁾ أنتوني غيدنز، نفس المرجع، ص 560.

⁽⁷⁾ أنتوني غيدنز، نفس المرجع، ص: 560.

"والسؤال الرئيسي الذي تصدت هذه المجموعة من المحللين لدراسته هو ببساطة: كيف يتحدد المسار الحياتي لأبناء الطبقة العاملة بحيث يجدون أنفسهم آخر الأمر في مجالات عملية تشبه تلك التي كان يعمل فيها آباؤهم؟ فمن الاعتقادات الشائعة أن أطفال الشرائح الدنيا والأقليات في الهرم الاجتماعي يتعرضون خلال المراحل الدراسية الأولى لبيئة تشعرهم بأن ثمة حدودا لا يمكنهم تجاوزها في حياتهم العملية والمهنية في المستقبل، وبعبارة أخرى، فإن التربية المدرسية تجعلهم يحسون بعقدة النقص منذ الصغر، وتدفعهم إلى المجالات المهنية التي لا تعزز من مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية"⁽⁸⁾

إلا أن الدراسات التي قام بها ويليس أظهرت نتائج مغايرة تشير إلى أن هناك عوامل أخرى هي التي تؤثر في بروز هذه الظاهرة. هذه العوامل لا علاقة لها بالأسرة ولا بالمدرسة.

"ويرى ويليس أن مثل هذه التفسيرات الشائعة لا تطابق الواقع الفعلي، فالتلاميذ أو الطلاب الذين يتركون مقاعد الدراسة وهم يحملون هذا الشعور قلة قليلة، وإذا كان أحدهم يعتقد أن من يترك المدرسة أو الجامعة هو شخص غبي أو بليد لا يصلح إلا للأعمال اليدوية قليلة الأجر، فإن السبب في ذلك لا يعود إلى البيئة المدرسية نفسها بل إلى مجموعة مركبة من العوامل، فني إحدى الدراسات التي أجريت في مجموعة من المدارس في بريطانيا، تركز البحث على مجموعات من التلاميذ البيض وأخرى من الملونين ذوي الأصول الآسيوية أو الكاريبية".

إن ويليس يبرهن من خلال النتائج التي أفرزتها الدراسات التي أجريت في بريطانيا وطبقت في المدارس والتي أظهرت أن كثيرا من إفرازات الجهاز المدرسي لها علاقة بعوامل أخرى غير تربوية وهذا ما أظهرته الدراسة الأنفة.

"وأظهرت الدراسة أن مجموعة البيض تدرك أنظمة المدرسة إدراكا تاما غير أنها تكون أكثر ميلا إلى المشاكسة والشغب من جماعات الملونين الذين يتصفون بدرجة أعلى من الانضباط. ويشير ذلك إلى أن هناك بعدا اجتماعيا آخر خارج النطاق المدرسي يؤثر في سلوك هؤلاء الأولاد في سوق العمل مع أن المجموعتين تتحدران من شريحة واحدة هي الطبقة العاملة، وتتجلى هذه العوامل في عدة جوانب من بينها اندفاع البيض بحماس أكثر للتقدم بطلبات العمل حتى لو كانت مواقع

⁽⁸⁾ أنتوني غيدنز، نفس المرجع، ص: 562.

العمل بعيدة عن أماكن سكنهم الأصلية، بينما هي ثقافيا مشابهة لبيئتهم الأصلية، بينما يميل الملونون إلى التمرکز في المدن والمراكز الحضرية الرئيسية".⁽⁹⁾

نظرية الاستمرارية الثقافية:

وتدرس هذه النظرية الإنصاف للفئات المختلفة داخل النسق التربوي وخاصة الجماعات المهمشة داخل الوسط المدرسي، منها النساء والأفراد الذين يعانون من إعاقة جسدية أو ذهنية، وكذلك الأشخاص الذين ينتمون إلى الأقليات الإثنية واللسانية والعرقية والثقافية، وفي هذا الإطار وضع العالمان مالينوفسكي وأجبو نظرية اللااستمرارية الثقافية لتفسير الوضعية التربوية للأقليات.

1- نظرية مالينوفسكي:

لقد كان من أوائل العلماء الذين تكلموا في نظرية اللااستمرارية الثقافية هو العالم الأنتربولوجي مالينوفسكي حيث أعطى رؤية جديدة للعلاقة بين الثقافة واللااستمرارية.

"تحدّر نظرية اللااستمرارية الثقافية، من فرضية يرجع تاريخها إلى بداية القرن العشرين، بالرغم من أن الدراسات الإثنوغرافية حول التربية لم تنطلق إلا في أواخر عقد الخمسينيات، وقد انتقد هيويت المدارس العمومية الأمريكية، العاجزة عن فهم واحترام السياق الثقافي للأطفال، أما بواس، فقد سجل نزوع المدارس إلى تنمية الامتثال لقيم الثقافة الأمريكية، من قبيل الفردانية"⁽¹⁰⁾

وعلى هذا الأساس فإن دراسات هيويت وبواس تشير إلى أن المدارس العمومية الأمريكية تتجاهل الخصوصيات الثقافية للمتمدرسين خاصة الأقليات منهم، وتعمل في الوقت ذاته على غرس الثقافة الأمريكية لديهم، مما يورث لديهم صراعا ثقافيا داخليا يؤثر بعد ذلك في نتائج التحصيل الدراسي.

"سنوات فيما بعد، وجه مالينوفسكي الاتهام إلى المدارس الاستعمارية، التي كان نمط اشتغالها يفسح المجال في رأيه، لتلتف أسس الثقافات الإفريقية، مثلما أنه فند الطرح الذي ينحو

⁽⁹⁾ أنتوني غيدنز، نفس المرجع، ص: 562.

⁽¹⁰⁾ عبد الكريم غريب، **سوسيولوجيا المدرسة**، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، ط1، 2009، ص: 410.

باتجاه الدونية البيولوجية الوراثية، والذي كان رائجا في تلك المرحلة، لتفسير ضعف الإنجازات المدرسية لدى الأطفال الأفارقة، آنذاك قام مالمينوفسكي بإدراج فكرة الثقافة، كعامل تأثير على التعلّمات المدرسية، من خلال صياغة فرضية اللااستمرارية الثقافية⁽¹¹⁾.

إن الاختلاف الثقافي بين المدرسة والبيت هو الذي يؤثر بشكل واضح في النتائج المدرسية للمتمدرسين والذي يظهر عند الأقليات في تحصيلهم الدراسي وهذا يوحي بأن العامل الثقافي له دور كبير في المردود التعليمي للمتمدرسين.

"وتوحي فرضية اللااستمرارية الثقافية، بتفاوت، بل وبقطيعة ما بين عالمين ثقافيين، ثقافة الانتماء الأسري والثقافة المدرسية، التي ينبغي مقاربتها، وقد استخدم الأنتروبولوجيون والمربون من بعدهم هذه الفرضية، لتفسير ضعف المردودية الدراسية لأطفال الأقليات المهمشة، بمفهوم لا تلاؤم ثقافتهم الأسرية مع الثقافة المدرسية"⁽¹²⁾

وعلى هذا الأساس فإن النشاز الحادث بين الثقافة الأسرية والثقافة المدرسية يظهر النتائج المدرسية لأبناء الأقليات المهمشة في مظهر من التحصيل الدراسي الضعيف.

2- نظرية أوجبو:

جاءت نظرية اللااستمرارية الثقافية لأوجبو كنقد لنظرية اللااستمرارية الثقافية لمالمينوفسكي فكانت أشمل وأوسع وأعمق.

"تعد نظرية اللااستمرارية الثقافية ذات أصل أنتروبولوجي، لكنها شديدة الترسخ في المجال المدرسي، وهي تأخذ بعين الاعتبار الدراسات الإثنوغرافية المقارناتية، التي تم إنجازها ميدانيا على امتداد عدة عقود من الزمن، أي داخل المدارس وكذلك في أوساط جماعات الأقليات، وإذا كانت هذه الدراسات المقارناتية، قد اقتصرّت في بداياتها على الجماعات الإثنية المتواجدة بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن الباحث أوجبو استطاع أن يقوم بتمديد مجال بحث هذه النظرية إلى عدة مناطق جغرافية من العالم، كإسرائيل مثلا عبر مقارنة

⁽¹¹⁾ عبد الكريم غريب، نفس المرجع، ص: 410.

⁽¹²⁾ عبد الكريم غريب، نفس المرجع، ص: 410.

اليهود الزشكنازيين بيهود أوروبا الشرقية، أو نيوزيلندا من خلال مقارنة الماوريين بالبيض، أو اليابان عبر مقارنة البوراكو بالأغلبية اليابانية⁽¹³⁾

وهكذا فإن التوسع التطبيقي لهذه النظرية من خلال الدراسات الميدانية المكثفة والمتعددة والمختلفة من ناحية المؤشرات أدت بالباحث أوجبو إلى استخراج نتائج جديدة لم يتطرق إليها مالىونفسكي، حيث استنتج على إثر ذلك المبادئ التي تقوم عليها هذه النظرية.

"ترتكز النظرية التي بلورها الباحث أوجبو على ثلاثة مبادئ أساسية تتمثل في:

- كل طفل ممتدرس يعيش داخل فضاء المدرسة درجة معينة من اللاستمرارية الثقافية
- تعد بعض مظاهر اللاستمرارية الثقافية انتقالية، وبالتالي فهي ليست مرتبطة بالحمولة المعرفية والثقافية للتلميذ تنتج حدة اللاستمرارية الثقافية، عن تاريخ الاتصال ما بين جماعة الانتماء للتلميذ، والثقافة المدرسية للجماعة الغالبة⁽¹⁴⁾.

وعلى هذا الأساس لاحظ أوجبو أن اللاستمرارية الثقافية تمس كل تلميذ وذلك للاختلاف الواضح بين الثقافة الأسرية والثقافية المدرسية، كما أنها تمس أبناء الأسر المهاجرة من دولة إلى دولة أو من الريف إلى الحضر حيث نجد التفاوت في الثقافات، كما أنها تمس أيضا النظام التربوي ككل حيث هناك صراع بين الثقافة المهيمنة والثقافة المهيمن عليها، وهذه كلها في النهاية تؤثر في نتائج التحصيل الدراسي للمتمدرسين.

أصول التفوق العلمي عند عبد الرحمن بن خلدون:

1- التعليم في الوسط الحضري أوسع أفقا من التعليم في الوسط البدوي:

إن الوسط الاجتماعي الحضري تكثر فيه الصنائع والحرف والمهن، ومن جملة الصنائع التي تنمو فيه بشكل واضح صناعة العلم والمعرفة، بعكس الوسط البدوي الذي تقل فيها أسواق العلم والمعرفة بل تنضب إلى درجة الانعدام وخاصة هذه الظاهرة تنطبق بشكل كبير على المجتمعات التي عاصرها العلامة عبد الرحمن بن خلدون وما قبلها من المجتمعات العربية.

⁽¹³⁾ عبد الكريم غريب، نفس المرجع، ص: 411.

⁽¹⁴⁾ عبد الكريم غريب، نفس المرجع، ص: 411.

"وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية، تزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدمنا أن النفس إنما تتشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتنا في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك"⁽¹⁵⁾

وهذا ما يوحي بأن ممارسة المتعلمين للتعلم باستعمال الملكات التي زود بها العقل البشري والمتمثلة في ملكة الذكاء وملكة الذاكرة وملكة الخيال تزيد العقل البشري ذكاء وفضانة وكيسا وهذا ما يهيئ المتدرس إلى التفوق الدراسي.

"ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو، كيف تجد الحضري متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله، وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجاداته من ملكات الصنائع والآداب، في العوائد والأحوال الحضرية، ما لا يعرفه البدوي، فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك"⁽¹⁶⁾

ونجد هذا التطبيق السوسولوجي لهذه الملاحظة الاجتماعية التاريخية لابن خلدون عند المقارنة بين أهل الحضرة وأهل البادية حيث نجد أن أهل الحضرة أكثر ذكاء وكيسا وفضانة من أهل البادية وذلك راجع إلى عادات وأحوال وطبائع المجتمع الحضري التي تميزهم عن أهل البادية وذلك بانغماسهم في ميدان الصنائع والأعمال والحرف والمهن وهذا ما ينعكس بعد ذلك على نمو القدرات الفكرية والعقلية لديهم.

2- العلوم تكثر حيث تكثر الحضارة ويعظم العمران:

كلما ظهرت المدنية الاجتماعية في مجتمع من المجتمعات وحدث التعضي الاجتماعي القائم على شبكة العلاقات الاجتماعية المؤسسة على الأخلاق والقانون والعمل والحرية وآلت أحوال المجتمع إلى النهضة ثم إلى الحضارة تمت الاستجابة للحاجات المادية للمجتمع فتظهر

⁽¹⁵⁾ عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، دار الهدى، عين مليلة، ب ط، 2009، ص: 472.

⁽¹⁶⁾ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المرجع، ص: 472.

المطالب النفسية والاجتماعية والروحية لأن البعد النفسي والاجتماعي والروحي يبدأ ينمو من جديد فتظهر تلك المطالب في شكل استغراق في العلم والمعرفة والصنائع والحرف والإنتاج.

"والسبب في ذلك أن تعليم العلم، كما قدمناه، من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة والحضارة والترّف، وتكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم، ممن نشأ في القرن والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد التعليم الذي هو صناعي، لفقدان أهل الصنائع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شأن الصنائع في أهل البدو"⁽¹⁷⁾.

وهكذا حينما ترسخ الحضارة في مجتمع ما، تتجه الأمة والدولة كلها إلى صناعة العلم والمعرفة من أجل الهيمنة عليها والاستئثار بنتائجها التطبيقية والنظرية في مختلف مجالات الحياة وهذا ما ينتج عن ذلك تفوقاً علمياً يحصل في كل المؤسسات الاجتماعية علاوة على نشاط كبير في الحركة المعرفية يحدث في المجتمع. والعكس حينما ينطفئ مشعل الحضارة تحدث السكّنة المعرفية في المجتمع"⁽¹⁸⁾ واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستتباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين، ولما تناقص عمرانها وسكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام".

وهذا التطبيق التاريخي نلاحظه في أمصار الحضارة الإسلامية حيث كلما حلت الحضارة حلت معها المعرفة والعلم وكلما ارتحلت الحضارة ارتحلت معها المعرفة والعلم، وهكذا يزداد التفوق العلمي لدى المجتمعات كلما نمت ورسخت لديها الحضارة والعكس بالعكس.

⁽¹⁷⁾ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المرجع، ص: 473.

⁽¹⁸⁾ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المرجع، ص: 473.

3- الشدة على المتعلمين مضرة بهم:

إن السلوك المعتمد في تربية الناشئة يؤثر في الملكات العقلية عندهم إيجابا وسلبا، فحينما يعتمد المربي على القسوة والعنف والشدة على المتعلم تنكمش لديه الملكات العقلية (الذكاء، الذاكرة، الخيال) وينقص مردوده التحصيلي وحينما يعتمد المربي على الحرية والتشجيع والرفق فإن الملكات العقلية لدى المتعلم تنمو.

"وذلك أن إرهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم، لا سيما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقها، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحماية والمدافعة عن نفسه أو منزله. وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانتقضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين."⁽¹⁹⁾

وهكذا نجد أن الشدة على المتعلمين والمعاملة بالعنف والقسوة لهم تؤدي إلى نتائج سلبية وتحطيم البعد النفسي والاجتماعي والروحي في شخصية المتعلم وهكذا ينتج عنه ضعف في التحصيل الدراسي بينما المعاملة الجيدة والرفق والتشجيع للمتعلمين تثمر عندهم قوة في الملكات العقلية مما ينتج عنه ارتفاع في التحصيل الدراسي والذي يتحول بعد ذلك بالتراكم إلى تفوق دراسي.

4- الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم:

وهذا راجع إلى أن الرحلة التي يمارسها المتعلم عن طريق الهجرة إلى بلاد الحضارة والعلم تزيد قوة في الملكات العقلية (الخيال، الذكاء، الذاكرة) كما تزيد استحكاما للعلوم والمعارف وتفوقا فيها.

"والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلى أن حصول الملكات

⁽¹⁹⁾ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المرجع، ص: 617.

عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. ⁽²⁰⁾

وعلى هذا الأساس نجد أن المتعلم كلما لبح عقله بالعلوم والمعارف عن طريق التعلم عند المشايخ والعلماء كلما ازداد تفوقا علميا وتحصيلا للعلوم والمعارف وهذا لا يتأتى إلا بكثرة الرحلات في طلب العلم، وهذه الرحلات وفوائدها يذكرها العلامة عبد الفتاح أبو غدة بقوله: "ولقد كانت هذه الرحلات في ذاتها دروسا لهم داخل دروس، عركتهم في ذواتهم عركا، وصقلتهم في أنفسهم صقلا، وعرفتهم بغلاء العلم وعزته، وأشعرتهم بحلاوة التحصيل ولذته، فانغمروا في تحصيل العلم انغمارا، واشتغلوا واشتعلوا به ليلا ونهارا، وقطعوا علاقاتهم بسواه من الأهل والزوجة والولد والبلد، فخرجوا أئمة أحابارا، يقدهم الناس بجدارة وحب، ويلتفون حولهم لقداستهم وصلاتهم وغزير علمهم وفضلهم، ولبصارة عقولهم، وعظيم نفعهم." ⁽²¹⁾

انطلاقا مما سبق نجد أن الرحلات العلمية كانت أحد الأسباب في تقوية الملكات العقلية لدى المتعلمين وزيادة مستوى التحصيل الدراسي والتفوق العلمي لديهم.

برتراند رسل؛ النسق السوسولوجي للتربية؛

يتكلم العالم التربوي برتراند رسل عن كثير من المؤسسات التربوية وأهميتها في حياة المتعلم في مختلف مراحل حياته، وإن الاعتناء بهذه المؤسسات التربوية وإعطائها الأهمية والرعاية الكاملة لهو الأساس الحقيقي والضامن للفعل التربوي المنشود في إطار المنظومة التعليمية للمجتمع.

1- مدرسة الحضانة:

الثقافة التربوية للوالدين سواء أغنياء أم فقراء غير كافية لتلقين الطفل عادات تربوية يكون من خلالها طفلا متوازنا في شخصيته قادراً على أداء أدواره الاجتماعية في المستقبل ولهذا ينبغي أن ينخرط في مدارس الحضانة قبل الدخول إلى المدرسة على شرط أن تكون هذه المدارس في أيدي خبراء في ميدان التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع.

⁽²⁰⁾ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المرجع، ص: 618.

⁽²¹⁾ عبد الفتاح أبو غدة، **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**، مكتبة المطبوعات الاسلامية،

بيروت، ط5، 1997، ص 109.

"طفل الحضانة يتمتع ببنية متوسطة الجودة، وليس جيرانه في أماكن الفقر المدقع هم وحدهم الذين يقصرون عنه كثيرا إذ يقصر عنه كذلك من (هم خير منه) في الأحياء الجيدة، أي أطفال الطبقة الوسطى من الطراز الجيد جداً. ومن الواضح أننا نحتاج إلى شيء أكثر من الحب الوالدي والمسؤولية الوالدية، فقواعد المسطرة قد انهارت كلها كما أنها كذلك (الحب الوالدي) الخالي من المعرفة، أما تنشئة الطفل فلم يتطرق إليها، أنها عمل يتطلب مهارة وبراعة عالية.

سيكون من النتائج العظيمة لمدرسة الحضانة أن يسير الأطفال أسرع في تلقي مناهج العصر الحاضر، وعندما يتمون نصف حياة المدرسة الأولية الحالية أو ثلثها سيكونون على استعداد للانتقال إلى دراسات أرقى، وبالجملة فمدرسة الحضانة، إذا كانت حقا مكان تنشئة وتربية لا مجرد مكان لرعاية الأطفال حتى يبلغوا الخامسة، ستؤثر في نظام التعليم كله تأثيرا قويا وسريعا جدا، وسترتفع بسرعة بالمستوى الممكن للثقافة والتحصيل في جميع المدارس ابتداء من المدارس المتوسطة، وستثبت أن في الإمكان محو ما نعيش فيه من حمأة المرض والبؤس التي تجعل خدمات الطبيب أعظم من خدمات المعلم، وستجعل المدارس ذات الجدران السميكة والبوابات الرهيبة والملاعب الصلبة والفصول الضخمة التي لا تدخلها الشمس تبدو قبيحة فظيعة كما هي في الواقع أنها ستعطي المعلمين فرصة⁽²²⁾.

انطلاقا مما سبق تكون مدرسة الحضانة مرحلة أساسية في التعليم عند الأطفال لتهيؤوا للمدرسة الابتدائية بشكل طبيعي ويكون لديهم التوثب للمعرفة والعلم.

2- الجامعة:

إن الذهاب إلى الجامعة يعتبر مرحلة اختباريه حاسمة ومنعرجا كبيرا في حياة المتدربين، إذ إن ذلك يعتمد أساسا على نمط المدرسة هل هي اشتراكية أم رأسمالية؟ وإلى المعدلات التي يفرضها امتحان البكالوريا، وإلى عادل الميول والرغبة الذي يعتبر مؤشرا هاما في النبوغ والوصول بالمعرفة إلى أعلى مراتبها " وفي فرضنا أن للجامعات هدفين: أن تعد من جهة الرجال والنساء لمهن معينة، وأن تتابع من جهة أخرى الدرس والبحث بغض النظر عن المنفعة العاجلة، فإذا نحن نبغي أن نرى في الجامعات أولئك الذين سيمارسون تلك بعد، وأولئك

⁽²²⁾ برتراند رسل، تر: سمير عبدو، في التربية، دار مكتبة الحياة، ب ط، بيروت، ب ت، ص 160

الذين وهبوا ذلك الخاص من المقدره الذي سيجعل منهم نافعين للدرس والبحث ، لكن هذا وحده لا يقرر كيف يتسنى لنا اختيار الرجال والنساء للمهن المختلفة.

ومن العسير جدا في الوقت الحاضر أن يتطلع الشخص إلى مهنة كالحقوق أو الطب ما لم يكن لدى والديه مقدار معين من المال ، لأن الإعداد حتى التخرج باهظ النفقة ، ولأن الكسب لا يبدأ بعد التخرج مباشرة ، ونتيجة ذلك أصبحت قاعدة الاختيار اجتماعية وراثية بدلا من أن تكون الصلاحية للعمل ، خذ الطب على سبيل المثال ، فالجماعة التي تبغي أن يكون تطبيها عن كفاية يختار مهنة الطب من بين النشء من كان أعظم رغبة فيه واستعدادا له ، وهذه تطبق في الوقت الحاضر تطبيقا جزئيا ، إذ يكون الاختيار من بين أولئك الذين يقدرتون على تحمل الأعباء المالية لهذا التعليم ، ولكن من المرجح جدا أن كثيرين من الذين لو أعطوا الفرصة لكانوا خيرة الأطباء ، يمنعهم الفقر من أن يسلكوا هذا الطريق ، وفي ذلك ضياع للمواهب يؤسف له" (23)

وعلى هذا الأساس فالانتقاء الاجتماعي للمهن كي يكون في أوج عطائه أثناء التبادل الاجتماعي بين الوحدات الاجتماعية للحقوق والواجبات هو أمر بالغ الصعوبة وذلك لمحدودية الحلول في دول العالم الأول واتساع شبكة المشاكل في دول التبعية والتخلف الحضاري.

جون ديوي: المدرسة والمجتمع :

إن الانفصال الكبير بين الحياة الاجتماعية والحياة المدرسية في الخصائص والصفات هو الحاصل الأكبر لجعل المدرسة ذات فعالية عالية ومنتجة لإطارات معرفية ومهنية بالغة الإتقان في أداءاتها وممارساتها بعد التخرج ، علاوة على الظروف الاجتماعية القاسية التي تحول بين كثير من الطلبة ومواصلة الدراسة ، ومنه فإن النسق المدرسي والنسق المجتمعي في تفاعل دائم كلاهما يؤثر على الآخر وحتى يكون هذا التفاعل إيجابيا ينبغي أن تكون الحياة في المدرسة مشابهة للحياة في المجتمع.

"والمغزى من هذا الاعتراض مضحك ، إن لم يحدث له تأثير شديد ، كما هي الحال في الغالب - فيصبح محزنا ، لأن تربيته الراهنة ضيقة وذات جانب واحد وطابع اختصاصي إلى درجة عالية ، فهي تربية يسيطر عليها بكاملها - تقريبا - مفهوم القرون الوسطى في التعلم ،

(23) برتراند رسل ، تر: سمير عبدو ، في التربية ، دار مكتبة الحياة ، ب ط ، بيروت ، ب ت ، ص 206

والظاهر أن هذا يعجب، في الغالب الجانب العقلي في طبائنا ورغبتنا في التعلم وتكديس المعلومات وإحراز السيطرة على رموز التعلم لا على دوافعنا وميولنا في الصنع والخلق والإنتاج، سواء أكان ذلك بصورة نفعية أم فنية، والحقيقية الواقعة هي أن التدريب اليدوي والفني والعلم معترض عليها جميعا إذا أصبحت للفن ذاته، وميالة نحو التخصص البحثي وهذه بينة حسنة يمكن تقديمها بشأن هدف التخصص الذي يسيطر على تيار تربيتنا، ولو لم تكن التربية قد اقترنت فعليا بتبعات عقلية مفرطة وبتعلم مفرط في الناحية العقلية كذلك لكانت كل هذه المواد والطرائق مرحبا بها ومتقبلة بأوسع إكرام، وبينما يعد التدريب على مهنة التعليم نوعا من الثقافة أو يعد تربية حرة، فإن تدريب الميكانيكي والموسيقي والمحامي والطبيب والفلاح والتاجر ومدير السكك يعتبر فنيا وحرفيا خالصا، فتكون نتيجة ذلك أن نشاهد في كل مكان أن ينقسم الناس إلى مثقفين وعمال وذلك فصل بين النظرية والتطبيق، ولا يكاد واحد في المئة من مجموع طلبة المدارس يصل إلى ما يسمى بالمدارس العالية، ويصل خمسة في المئة إلى الدراسة الثانوية، بينما يترك أكثر من نصف الطلبة عند إكمال الصف الخامس الابتدائي أو قبل ذلك، والسبب الأساسي لهذه الحالة هي أن الولوج العلمي المجرد ليس أبرز ولا أقوى عند الكثرة الغالبة من الناس إذا إن لدى الكثرة ما يسمى بالدافع أو الاستعداد العملي، وكثير ممن وهبتهم الطبيعة ولعا عقليا متينا تحول الظروف الاجتماعية دون أن ينالوا إدراكا كافيا للأمور ونتيجة لكل ذلك تترك الكثرة الغالبة من الطلبة المدرسة حالما تحصل على فترات من التعلم، وحالما تحصل على ما يكفيها من تعلم رموز القراءة والكتابة والحساب ذات النفع العملي في المعيشة⁽²⁴⁾.

وهكذا نجد أن عالم التربية جون ديوي يشير إلى أن مطالب الحياة الاجتماعية والمعاش تستهلك في طريقها كثيرا من العباقرة وتدفعهم في مقابر العمل دون أن تترك لتلك المواهب العنان حتى تتفق وتتج وتبدع في عالم العلم والمعرفة.

"وبينما يتكلم قادة التربية عندنا عن الحضارة وعن تنمية الشخصية... الخ بوصف ذلك غاية وغرضا، فإن الكثرة الغالبة من الذين يدفعون أجورا دراسية يعتبرون ذلك وسيلة عملية صعبة يستطاع بها الحصول على معيشة تخفف من قسوة الحياة الضنكة، فلو تهياً لنا أن ندرك غايتنا وغرضنا التربويين بطريقة أقل إفراطا، ولو تهياً لنا أن نقدم في العمليات التربوية

⁽²⁴⁾ جون ديوي، تر: أحمد حسن الرحيم، **المدرسة والمجتمع**، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت، 1978، ص 48.

الفعاليات التي تجذب أولئك الذين أبرز أولادهم العمل والصنع، لوجدنا أن المدرسة تفيض على أعضائها بصورة أكثر حيوية وأطول مدى وأغنى حضارة، ولكن يجب علي أن أقوم بهذا التقديم المتعب؟!

الحقيقة البارزة أن حياتنا الاجتماعية قد عانت تغيرا قويا وأساسيا، فإذا أريد لتربيتنا أن تحتوي على معنى للحياة أيا كان فعليها أن تجتاز تبديلا مساويا تقريبا للتبدل السابق، على أن هذا التبدل ليس شيئا ما يبدو وفجأة أو ينفذ في يوم لغرض مقصود لأنه آخذ في التقدم، وأن هذه التعديلات في نظام مدارسنا التي لا تبدو غالبا (حتى لأولئك الذين تخصصهم بصورة قوية فضلا عن من يشاهدونها وحسب) إلا تغييرات بحتة في التفاصيل، وتحسينات مجردة داخل ميكانيكية المدرسة ما هي في الحقيقة علامات وبيانات على التطور أما تقديم مهن عملية ودراسة الطبيعة ومبادئ العلوم والفن والتاريخ وجعل التعلم الرمزي والشكلي ذا منزلة ثانوية، والتغيير في جو المدرسة الخلفي أي في علاقة الطلبة بالمعلمين - وهي الناحية التهديبية - وتقديم عوامل أكثر فعالية وتعبيرا وتوجيها للذات، فإن هذه جميعا ليست حوادث مصادفة، بل ضرورات تطور اجتماعي واسع، ولم يبق إلا أن ننظم هذه العوامل جميعا وأن نقدرها بامتلائها ومعناها، وأن نجعل نظام مدارسنا يمتلك ما فيها من أفكار ومثل، بصورة كاملة ومن دون مساومة.

ولتنفيذ هذا يلزم أن نجعل في كل مدرسة من مدارسنا حياة اجتماعية مصغرة أو حياة اجتماعية في بدايتها فعالة بأنواع مهنها التي تعكس حياة مجتمع أكبر، وتتقدم بروح من الفن والتاريخ والعلم فعندما تقدم المدرسة كل طفل إلى عضوية المجتمع وتدرجه داخل مجتمع صغير من هذا النوع فتجعله يشرب روح الخدمة، وتجهزه بأدوات التوجيه الذاتي الفعال، يكون لنا حينذاك أعمق وأحسن ضمان لمجتمع أكبر ذي قيمة وحسن وانسجام⁽²⁵⁾

خاتمة:

لقد تعددت التحاليل السوسيوولوجية لمختلف النظريات الاجتماعية لظاهرة التفوق الدراسي وإعطاء وجهات نظر مختلفة ومتباينة انطلاقا من علم الاجتماع لهذه الظاهرة والخلفيات الاجتماعية المؤثرة فيها انطلاقا من الإفرازات التاريخية المتباينة والأحوال الاجتماعية المتغيرة التي

⁽²⁵⁾ جون ديوي: تر: أحمد حسن الرحيم، **المدرسة والمجتمع**، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت، 1978، ص 50

يعاصرها كل عالم اجتماع في الظروف والأحوال التاريخية التي يعاصرها هذا العالم أو ذاك. ولذلك رأينا في هذا الفصل تفاسير وشروحات وتحليل سوسيولوجية متباينة لظاهرة التفوق الدراسي يستطيع الباحث أن يستفيد منها في التحليل السوسيولوجي لظاهرة التفوق الدراسي.